نظرة إجمالية على مخطوطة نادرة

عصمة الأنبياء لملا مخدوم الملك

توجد نسخة مخطوطة لكتاب نادر يعود تأليفه إلى عصر الامبراطور همايون (٩٣١ هـ - ٩٦٣ هـ) و هو «عصمة الأنبياء» من مؤلفات العالم الربانى الجليل عبد الله السلطان بورى المشهور بملا مخدوم الملك، و هو من أعلام الهند فى العهد المغولى.

قد تبين لى بعد البحث و الدراسة بأن هذا الكتاب منفرد فى بابه قد ألف فى علم الكلام فى فترة ما بين القرن الثامن الهجرى = السادس عشر الميلادى. من المميزات البارزة لهذا الكتاب المهم أن موضوعاته و مباحثه قد كتبت فى ضوء الكتاب و السنة - و قد حاول المؤلف أن يتجنب المجادلات العقلية و المناقشات الكلامية السائدة فى زمانه.

هذا الكتاب يعد من أهم الكتب فى موضوعه فى الهند، بل هو كتاب ثان ألف فى هذا الموضوع فى العالم الإسلامى، يتبين من مقدمة هذا الكتاب أن المؤلف قد أهداه إلى الأمير المغولى الحاكم مرزا محمد كامران.

ولد الشيخ عبد الله بن شمس الدين الأنصارى فى قرية من قرى ولاية بنجاب و هى سلطان بور و هى قرية من مدينة لاهور، قد نزح آباؤه و أجداده من مدينة تت من ولاية سند إلى مدينة جالندهر، و من هنا غادر أبوه إلى سلطان بور حيث توطن بها، و قد ولد هذا العالم فى هذه القرية المباركة، و رضع بلبان العلم فيها، حيث أنهى التعليم الإبتدائى بها، و أكمل العلوم المدرسية العالية على يد الشيخ عبد الله السرهندى، و ذهب بعد ذلك إلى دهلى - عاصمة الحكم و العلم - ليتلق علم الحديث النبوى من الشيخ إبراهيم

ابن معين الحسينى الايرجى، و عاد بعد ذلك إلى مسقط رأسه سلطان بور و اشتغل بالتدريس و التأليف حتى ذاع صيته فى الأوساط العلمية و الدينية، فوقع عليه انتخاب الامبراطور همايون و فوض إليه منصب القضاء[1]، و منحه لقب «مخدوم الملك» اعترافا بدينه و تقواه و تقديرا لعلمه و اشتغاله بالتصوف[2]، و فى هذه الفترة بدأت الصلات الودية بينه و بين أخ الامبراطور همايون و هو مرزا كامران.

عند ما تولى محمد كامران منصب حاكم عام فى ولاية بنجاب عين مخدوم الملك رئيسا للشؤن الدينية فى ولاية بنجاب، و أغلب الظن أن معاقرة بنت الكرم قد حظرت و فرضت العقوبة عليها أيام كان هو رئيسا للشؤن الدينية.

فى سنة ١٥٣٩م عند ما هزم شير شاه السورى (المتوفى سنة ٩٥٢هـ) الامبراطور همايون و اقتحم مدينة دهلى فكان الخطر يلحق بولاية بنجاب أيضا، فى هذه الظروف الحرجة قرر مرزا كامران إرسال وفد إلى شير شاه برئاسة مخدوم الملك بايحاء من الامبراطور همايون يدعوه إلى عقد الصلح و منع الهجوم على ولاية بنجاب، و قد شاء القدر أن يكلل هذا الوفد بالنجاح فى مهمته حيث رضى شيرشاه أن لا يهاجم ولاية بنجاب، فى الحقيقة كان مخدوم الملك عالما كبيرا و سياسيا بارعا، فقد أدرك شير شاه هذه الموهبة العلمية و السياسية فيه، فهو كان يقدر مخدوم الملك فقد زال الخطر الذى كان يحدق بولاية بنجاب إلى حين بجهوده و براعته. و لكن لجوة الخلاف و الشقاق قد اتسعت بين همايون و أخيه مرزا كامران ـ لما أحيط شيرشاه علما بهذا الوضع توجه إلى ولاية بنجاب و سيطر عليها و ضمها بحدود مملكته، تولى المرزا كامران زمام الحكم فى أفغانستان، و لجأ

همايون إلى إيران فى سنة ١٥٤١ م و قد دخل قلبه اليأس و التبرم بالحياة ، و تولى مخدوم الملك فى عهد شيرشاه السورى منصب القضاء ما بين ٤١ - ١٥٤٥ م و لقبه شيرشاه « بصدر الإسلام» اعترافا بمكانته العلمية و الدينية[٣].

لما توفى شيرشاه تربع نجله « إسلام شاه » على عرش الحكومة و زاده تفضيلا و إكراما و عينه على منصب « صدر الصدور[٤] » حتى أنه ما كان يبت أمرا و لا يقطع حكما إلا بمشورته ، و بلغ إجلاله و إكرامه له إلى حد أنه كان يجلسه على عرش الملك بجنبه و يتشرف بصحبته و قربته ، قد نال مخدوم الملك إكرام الملك « إسلام شاه » كما نال احترام الناس و تقديرهم له[٥] ، و أصبح محبوبا و محترما لدى العامة و الخاصة حتى أن كل حاكم و وال كان يكنّ له كل إجلال و احترام .

و عند ما رجع همايون من إيران فاتحا و هزم مرزا كامران فلجأ إلى « إسلام شاه » يستغيثه و يستنجد بـه ، فاستقبله مخدوم الملك نيابة عن « إسلام شاه » استقبال عالم دينى ذى مروءة لا ينسى أياديـه البيضاء و أخوته الصادقة .

و عند ما عمت الفوضى و اختلت نظم العمل و الحكم فى أفغانستان بعد إسلام شاه فتألق نجم همايون و تولى مقاليد الحكم فى الهند مرة أخرى ، و بدأ يحكم عليها من جديد ، فيعيد إلى مخدوم الملك مكانته و عظمته و يلقبه « بشيخ الإسلام[٦] » . و عند ما بدأ عهد الامبراطور أكبر فى الهند ازدادت منزلة مخدوم الملك و مكانته فى الحكم حتى أن الامبراطور أكبر كان يقدمه على جميع العلماء المعاصرين له ــ و منحه لقب « مخدوم الملك[٧] » ، و عينه فى فتح بور (عاصمة دولتـه) وزيرا للبلاط[٨] براتب قدره مائة ألف دام[٩] (العملة السائدة آنذاك) ، و بذلك حصل مخدوم الملك على أكبر منصب

سياسي فى ذلك الوقت فكأنه حمل بيد راية رئاسة الأمور الدينية و بيد أخرى رئاسة السياسة العامة ، فقد استفاده الامبراطور أكبر استفادة ببصيرته فى شؤن الحكم و بعلمه فى الأمور الدينية .

و لكنه يظهر أن المكانة الممتازة التى يحتلها مخدوم الملك طول حياته و خاصة فى عهد الامبراطور أكبر قد حركت دوافع الحقد و الحسد فى نفوس العلماء المعاصرين له من بينهم الملا مبارك الناكورى (المتوفى ١٠٠١هـ) و ابنه أبو الفضل ، من سوء الحظ قد انحرف الامبراطور اكبر عن الجادة المستقيمة حيث أبدع دينا جديدا بدوافع سياسية و اجتماعية فقد ابدى مخدوم الملك استياءه و تبرمه على هذه البدعة السيئة ، فانتهز أبو الفضل هذه الفرصة لإيقاع الخلاف و الشقاق بينه و بين الامبراطور أكبر ، و ألقى فى قلبه بأنه لا يقدر أن ينشر هذا الدين الجديد ما دام مخدوم الملك يتمتع بالسلطة السياسية و الدينية ، و مادام يتمتع بالمكانة المرموقة لدى الناس ، و أن الحاكم مهما كان قويا لا يقدر أن يصدر حكما و خاصة فى الشؤن الدينية و الإسلامية ، إلا أن يوقع عليه صدر الإسلام أولا و يبدى رضاه به ، و ان مخدوم الملك يخالف الامبراطور أكبر كل المخالفة ، لذلك وجد المخالفون و المتبرمون بمخدوم الملك سبيلا للتقرب إليه و لخلق فجوة عميقة بينه و بين الامبراطور أكبر ـ لا شك أن مخدوم الملك و ملا عبد النبى صدر الصدور فى عهد الامبراطور أكبر قد عصيا سلطة القضاء و الشؤن الدينية بأن تلعب بها الأيادى العابثة و تدخل فيها الأهواء الفاسدة ، حينئذ سلك الفاسدون و المتملقون طريقا آخر و هو إبعاد مخدوم الملك من أرض الهند ، و قد رضى الامبراطور أكبر بهذا ، و فعلا نزل الامبراطور أكبر عند رأيهم ، لانه كان يوافق هواه ، فأمر مخدوم الملك أن يغادر الهند و يذهب

إلى

إلى الحجاز للحج و الزيارة[10] ـ و كان هذا الأمر أمر الامبراطور أكبر فكان لابد لمخدوم الملك أن يطيعه و يقبل ما يريد السلطة الحاكمة . أما عودته من الحجاز إلى الهند فما كانت يمكن لمخدوم الملك إلا أن يصدر الامبراطور قرارا آخر يسمح فيه أن يعود هو إلى الهند[11] . كان مخدوم الملك قد ذاع صيته فى الهند و خارجها ، فحينما وصل إلى الحجاز استقبله العلماء و الأمراء و رحبوا به كل ترحيب ليقدروا مكانته و منزلته العلمية والدينية ، حتى يقال بان العالم الدينى الشهير العلامة شهاب الدين ابن حجر المكى (المتوفى سنة ٨٦٩ هـ) قد أمر أن يفتح له باب بيت الله فى غير موسم الحج[12] ، هذا يدل على ما كان يتمتع مخدوم الملك بشهرة فائقة و تقدير له لدى الناس فى أرض الحجاز : بقى مخدوم الملك مدة فى أرض الحجاز يحاول أن يكون على علم و بصيرة مما يجرى فى الهند ، و فى هذه الفترة ظهرت حركات دينية مختلفة تحارب العقيدة الجديدة التى أبدعها الامبراطور أكبر بمساعدة رجال يدعون أنهم علماء مجتهدون ، من هذه الحركات القوية حركة مرزا محمد حكيم الذى وجد لحركته و دعوته أعوانا و أنصارا فى كافة أنحاء الهند . و أصبحت هذه الحركة خطرا سياسيا للامبراطورية الهندية ـ كان مخدوم الملك كما قلنا يترقب أخبار الهند ، فلما سمع أن الشعب قد بدأ يثور على الامبراطور أكبر و على دينه الجديد قصد الهند . فلما وصل إلى كجرات علم أكبر بوصوله ، فقد خاف أن يكون هذا الرجل القوى عونا و سندا للحركة الدينية التى تحارب الدين الجديد و تدافع عن العقيدة الإسلامية الصحيحة ، فأمر أكبر بايقاع القبض على مخدوم الملك و إيداعه فى السجن[13] لا شك أن مخدوم الملك كان يتمتع بشهرة عظيمة فى الأوساط الهندية ، لذلك يقال إن الامبراطور أكبر قد أمر بقتله فى

السجن . قد اختلف الرواة المؤرخون فى تاريخ وفاته . أغلب الظن أنه توفى ١٥٨٢ م فى گجرات ، و حمل جثمانه إلى بنجاب سرا حيث تم تدفينه[١٤].

مؤلفاته : قد أعطى مخدوم الملك موهبة فائقة للكتابة و الدراسة ، و ألف عددا كبيرا من الكتب ، و نال كل كتاب إعجاب العلماء و تقديرهم ، و لكن كما يقول البدايونى أن « عصمة الأنبياء » و « شرح شمائل النبى » من أهم كتبه و أشهرها[١٥] ـ و له كتاب مشهور فى السيرة النبوية باسم « منهاج الدين » و هو من أهم الكتب فى السيرة النبوية التى ألفت فى الهند ـ و قد حدث العالم الهندى المؤرخ الشهير الشيخ عبد الحى اللكهنوى (المتوفى ١٣٤١ هـ) عن هذا الكتاب و عده من الكتب الأوائل التى ألفت فى موضوع السيرة النبوية ، ثم نجد اسما ثانيا تناول موضوع السيرة و هو الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى (المتوفى ١٠٥٢ هـ) ، مع أن كتاب « منهاج الدين » من أهم الكتب فى السيرة مع ذلك لا نجد اسم مخدوم الملك بين كتاب السير فى الهند[١٦] ، و الكتاب الرابع « شرح العقيدة الحافظية[١٧] » ، أغلب الظن أن هذا الكتاب هو شرح لكتاب « الاعتماد فى الاعتقاد » لمؤلف القرن الثامن ، هو المفسر الفقيه الحنفى أبو البركات ، عبد الله بن أحمد بن حافظ الدين النسفى (المتوفى سنة ٧١٠ هـ) [١٨] ، و الكتاب الخامس « كشف الغمة عن بصائر الأمة » ، و نجد بين مؤلفاته كتيبا صغيرا و هو « رسالة فى تفضيل العقل على العلم[١٩] » ، و له تعليقات مفيدة على كتاب « شرح ملا »[٢٠] .

و قد نسب إليه بعض المؤلفين كتاب "عفيف الأنبياء" أو "عفة الأنبياء" و لكننى أعتقد أن اسم هذا الكتاب هو تحريف لكتابه "عصمة الأنبياء" الذى نحن فى صدد ذكره و البحث عنه . ـ

كتاب

كتاب " عصمة الأنبياء " كما يتبين من قول المصنف بأنه قد أهداه إلى مرزا كامران أخى الامبراطور همايون فى الايام التى كان هو حاكما عاما من قبل الامبراطور " بابر ".

لقد كان عصر بابر و حاكمه مرزا كامران عصرا تختلف فيه النزعات و تتصادم فيه الاتجاهات ، فقد كان العالم الاسلامى منقسما فى الكتلتين المتعارضتين المختلفتين فى العقيدة و الاتجاه الدينى ـ كتلة شيعية قامت حكومتها فى إيران و خراسان ، وكتلة سنية خالصة تعتنق المذهب الحنفى مذهبا قانونيا و دستوريا ، تتولى و ترعى هذه الكتلة حكومة المغول التى كانت قوية فى شرق الهند . و كتلة سنية أيضا تسندها الخلافة العثمانية التى كانت حكومتها فى الغرب ، وكان المذهب الرسمى القانونى للخلافة العثمانية المذهب الحنفى أيضا .

قد ظهر أثر الخلاف المذهبى فى الحياة الاجتماعية كما ظهر فى الحياة السياسية . فقد حاول الامبراطور بابر و حاكمه النابغ مرزا كامران بأن لا تتسرب العقائد الشيعية التى تشرف عليها حكومة الصفويين ـ وكانت الغاية التى لأجلها ولى الامبراطور بابر مرزا كامران على الأفغانستان ليحافظ على حدودها و يراقب ما يجرى وراء حدود الهند ، لأن العصر الذى تولى فيه مرزا كامران حكم الأفغانستان عصرا ازدهرت فيه العلوم العقلية و الفلسفة اليونانية فى إيران ، فقد تصدى مرزا كامران لمنع الفلسفات و العقائد المخالفة للمذهب السنى ، لان العقائد الشيعية كانت تتسرب إلى الهند من المجارى المختلفة خاصة بطريق الكتب التى ألفت كثيرا فى ظل الحكومة الصفوية فى إيران ، فقد كان مرزا كامران يحافظ على ثغور الأفغانستان من هجوم الايرانيين عليها برباط الجأش سبع سنوات مستمرة ، أغلب الظن أن مخدوم الملك

قد أهدى كتابه " عصمة الانبياء " إلى مرزا كامران لانه رأى فيه شخصية إسلامية كما رأى فيه النبوغ السياسى، و وجد فيه الحمية و الغيرة على شعائر الإسلام و الحب الشديد للمذهب السنى الحنفى ، فكأنه كان ينوى باهداء عصمة الانبياء إليه أن يقوى شخصيته و يسنده من الناحية المعنوية ، لأن كتابه هذا يدور حول العقائد الإسلامية الصحيحة و رد البدع و الأوهام التى دخلت فى العقائد و انتشرت فى المجتمع الهندى ، و فى هذه الفترة ظهرت أيضا حركة إباحية - هى حركة القرامطة فى أنحاء السند ، كما نشطت الفرقة الإسماعيلية الباطنية لنشر عقائدها التى كانت تخالف المذهب السنى الحنفى كل المخالفة[21] ، و من الجهة الأخرى أثرت الفلسفة الهندية على طبقة كبيرة من الناس حتى جعلت الطبقة الجاهلة البدعة و الأوهام دينها و مذهبها ، و صارت الأفكار الهندوكية فتنة ، و جعل غلاة المهدوية عقائدها الفاسدة دينا و قانونا للناس ، حتى بدأت تنتشر فى الناس عقيدة بأن الأموال التى بين يدى الناس هى ليست ملك فرد بل هى ملك الناس جميعا فكأنها كانت تحاول بنشر هذه العقيدة بأن تلغى الملكية الفردية و نظام الإرث فى الإسلام[22] - فى هذه الظروف الحرجة كان من الضرورى أن تقوم شخصيات إسلامية علمية على قدم و ساق و تدافع عن العقائد الإسلامية و أسسها ، و تقدمها إلى الناس بلغة قوية فى أسلوب متين ، بهذه الدوافع الف مخدوم الملك كتابه « عصمة الانبياء » و إلى هذا يشير فى مقدمته : « أسرى التقليد المحرومين من التايبد و التسديد يحومون حول أقاصيص الأنبياء ، و يعربون عن زلات الأصفياء ، من غير أن يفرقوا بين ما هو قريب الصواب و بين ما هو سديد و بين ما هو رائد عن المنهج الرشيد ..... فحاولت أن أوسس أساس عصمة كل نبى و رسول ، و أمهد ما يوثق عليه فى إبتناء الفروع

و الأصول

و الأصول ، و أصرف ظواهر ما نسب إليهم من المسموع و المنقول ، و أنفى عنهم ما وشى عليهم مما يأباه صحاح العقول ، بتأويل بديع موافق لمقطوع الدليل ، و محمد ؟ صحيح هو شفاء العليل و دواء الغليل ، و هدى إلى سواء السبيل ، و لا يبقى فيه محل القال و القيل ، حتى ينسد طريق الافتراء ، و يغلق باب الازدراء بمن يجب حسن الاعتقاد بهم ، و كمال الاعتقاد عليهم ، لكون نشأة الدين عن حركاتهم و سكناتهم »

مخطوطة عصمة الأنبياء : توجد مخطوطة هذا الكتاب فى مكتبة خدا بخش بمدينة بتنه ، (فى ولاية بهار) الهند ـ نجد فى فهرس المخطوطات للمكتبة[٢٢] تعليقا بسيطا عن تاريخ الكتاب و عن المخطوطة ، و رقم المخطوطة ٥٦٩ و هى تشتمل على ١٤٩ ورقة ، و فى كل ورقة ١٩ سطرا ، و يعود تاريخ التأليف إلى ١٠٣٣ ﻫ .

المخطوطة فى حالة حسنة اللهم إلا بعض أوراقها فانها مخرومة ، و قد سقط عدد كبير من حروفها فهى لا تكاد تقرأ ، و لكن بعد قراءة النص و دراسة البحث يمكن أن ترتب العبارة . و فى الهامش شرح الألفاظ الغامضة و النصوص المعقدة و قد شرحت النصوص فى مكانين من اللغة الفارسية .

قد بحثت عن النسخة الأخرى للمخطوطة فى فهارس المخطوطات الأخرى فلم أجد نسخة لها كما لم أجد ذكر هذه المخطوطة فى غير فهرس المخطوطات لمكتبة خدا بخش فى بتنه .

من أهم مميزات هذا الكتاب أنه منفرد فى بابه لم يؤلف كتاب فى الهند قبله فى الموضوع الذى تناول هذا الكتاب ، أما فى البلاد الإسلامية الأخرى فلا شك أننا نجد كتبا تتناول هذا الموضوع الذى يدور حول

«عصمة الأنبياء»، و لكن هذه الكتب لا تجاوز عدد أصابع اليد، من المؤلفين الذين قرعوا هذا الموضوع المهم المعقد الإمام الكبير الفيلسوف المشهور فخر الدين الرازى (المتوفى ٦٠٦ هـ). فقد ألف كتابا فى هذا الموضوع باسم «عصمة الأنبياء»[٢٤]، هذا الكتاب لم يطبع بعد، و توجد نسخة مخطوطة له فى مكتبة برلن برقم ٢٥٢٨،[٢٥] و كذلك نجد كتابا آخر يضرب على هذا الوتر للشيخ أحمد بن مصلح الدين باسم «عصمة الأنبياء و تحفة الأصفياء» و من المؤلفات الأخرى مؤلف لأحمد بن سهل البلخى (المتوفى ٣٣٢ هـ)، و مؤلف معاصر لمخدوم الملك هو محمد بن عبد الله بن الخطيب التمرتاشى الغزى الخوارزمى له كتيب باسم «عصمة الأنبياء»[٢٦]، فى موضوع «عصمة الأنبياء» لا نجد كتابا مهما ألف فى الهند بعد مخدوم الملك اللهم إلا كتابا واحدا ألف فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى هو للملا دوست محمد بن الملا أمير محمد الكابلى التونكى (المتوفى ١٢٢٨ هـ) كتاب باسم «تحفة الأخلاء فى عصمة الأنبياء»، و قد طبع هذا الكتاب سنة ١٢٩٤ هـ فى المطبعة العلوية، يشتمل على ٢٤٨ صفحة، توجد نسخة مخطوطة لهذا الكتاب فى مكتبة رضا برامبور[٢٧] فى ولاية اترابرديش بالهند.

موضوع كتاب "عصمة الأنبياء" موضوع هام جدا، لذلك نجد هذا الموضوع قد ناقشه العلماء و المفسرون فى كتب التفسير، و المتكلمون فى كتب علم الكلام، لأن هذا الموضوع له صلة قوية بالتوحيد و التنزيه و صفات الله عز و جل و ما إلى ذلك، لذلك تناول العلماء هذا الموضوع دراسة و بحثا. يختلف مخدوم الملك فى تأليف كتابه "عصمة الأنبياء" من المؤلفين الآخرين، لأنه ناقش هذا الموضوع العويص مناقشة علمية

موضوعية و أثبت آراءه و عقائده بنصوص القرآن و الحديث، و لم يعتمد كل الاعتماد على العلوم العقلية و الفلسفية شأن المتكلمين الآخرين، بعد دراسة الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع نصل إلى نتيجة بأن منهج التأليف الذى يعتمد على أسس نصوص القرآن و الحديث قد بدأ من الفقيه الحنفى المشهور الصوفى الكبير شهاب الدين فضل الله بن حسن التوربشتى (المتوفى ٦٦١ هـ) الذى ألف كتابا مشهورا «المعتمد فى المعتقد»[٢٨] باللغة الفارسية، واختار فيه منهجا يختلف كل الاختلاف من منهج المتكلمين الآخرين الذين يناقشون موضوع عصمة الأنبياء فى ضوء أدلة علماء اليونان و فلسفاتهم[٢٩]، و قد أهدى التوربشتى كتابه هذا إلى الأمير أبى بكر سعد بن زنكى الذى كان حاكما على تركستان و فارس، و إلى هذا الأمير نفسه قدم الشاعر الفارسى المشهور بالشيخ سعدى الشيرازى كتابه «گلستان» الذى يعد من أحسن الكتب فى اللغة الفارسية.

كان الإمام التوربشتى من النابغين فى العلوم العقلية و النقلية و قد شرح كتاب الإمام البغوى الشافعى (المتوفى سنة ٥١٦) «مصابيح السنة» باسم «الميسر»[٣٠] و قد شرح هذا الكتاب العلماء الآخرون أيضا كالعلامة البيضاوى (المتوفى ٦٨٥ هـ)، و العلامة الواسطى الطيبى (المتوفى ٧٤٣ هـ)، و لكن نجد شرح توربشتى يمتاز بدقة البيان و الأسلوب المتين. مع ذلك نرى أن كتابه «المعتمد» لم ينل القبول و الترحيب لدى العلماء، و السبب فى ذلك أن العلماء ما كانوا يقدرون أى كتاب إذا لم يؤلف على منهج المتكلمين و الفلاسفة و يدل على عدم تقديرهم لهذا الكتاب بأنه لم يطبع إلا فى الهند فى سنة ١٢٨٨ هـ.

إن مخدوم الملك يحمد على الجهود التي بذلها في سبيل دعم القضايا الدينية خاصة قضية عصمة الأنبياء و التوحيد و التنزيه بالأدلة التي استخرجها من القرآن و السنة، كأنه بذلك غير المنهج التقليدي الذي كان يعتمد كل الاعتماد في مثل هذه الموضوعات على العلوم العقلية، التي امتدت جذورها بين الطبقة المثقفة، فكان من الصعب أن يتصدى أي كاتب أو باحث لتغيير المنهج التقليدي العقيم، فالمنهج الذي نهجه مخدوم الملك كان في الحقيقة امتدادا للمدرسة المنهجية التي أسسها العلامة التوربشتي و ظهرت رائعته الفنية في كتابه "المعتمد"، و أن مخدوم الملك قد نقل كثيرا من آرائه في كتابه "عصمة الأنبياء" فهو بهذا المنهج القوى قوى أسس منهج الإمام التوربشتي و قدم الإمام حركته الإصلاحية الموضوعية، من حسن الحظ قد نال كتاب مخدوم الملك القبول و الترحيب لدى العلماء[٣١]، فقد نرى الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي تبنى منهج مخدوم الملك في كتابه «تكميل الإيمان و تقوية الإيقان»[٣٢]، فكأن منهج مخدوم الملك العلمي تقدم و استمر على يد هذا العالم الكبير و المصلح العبقري[٣٣].

نرى أن مخدوم الملك نفسه يذكر في مقدمة كتابه المنهج الذي اختاره:

"أسراى التقليد محرومين من التأييد و التسديد، يحومون حول أقاصيص الأنبياء و يعربون عن زلات الأصفياء من غير أن يفرقوا بين ما هو قريب الصواب و بين ما هو بعيد، و بين ما هو سديد و بين ما هو رايد عن المنهج الرشيد ... فحاولت أن أوسس أساس عصمة كل نبي و رسول، و أمهد ما يوثق عليه في ابتناء الفروع و الأصول، و أصرف ظواهر ما نسب إليهم من المسموع و المنقول، و أنفي عنهم ما وشي عليهم مما يأباه صحاح العقول، بتأويل بديع موافق لمقطوع الدليل، و محمد (؟) صحيح هو شفاء العليل

و دواء

و دواء الغليل ، و هدى إلى سواء السبيل ، و لا يبق فيه محل القال و القيل ، حتى ينسد طريق الافتراء ، و يغلق باب الازدراء ، بمن يجب حسن الأعتقاد بهم ، و كمال الاعتقاد عليهم . لكون نشأة الدين عن حركاتهم و سكناتهم" .

كتاب عصمة الأنبياء : يشتمل هذا الكتاب القيم على مقدمة بليغة سلسة قوية تدل على ذوق الكاتب و مقدرته الأدبية و حسن تصرفه ، فقد نرى فى مقدمة أنه يستعمل كلمة « العصمة » بطرق مختلفة فى عبارات متنوعة ، مثلا هو يقول :

" بك أعتصم يا عزيز يا كريم ، و من يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . . . . و بعد ، فيقول العبـــد المعتصم بحبل البارى عبد الله بن شمس الدين الأنصارى ، عصمه الله عن خلف القول . . . . . و سميته بعصمة الأنبياء " .

ثم يتكلم عن معنى العصمة فى اللغة ، و معنى عصمة الأنبياء فى الشريعة الإسلامية و يقول : إن عصمة الأنبياء تنحصر فى ثلاثة أمور : تتابع الوحى؛ و اعتراض على ما يصدر عنهم سهوا ، و العتاب على ترك الأولى .

الكتاب ينقسم فى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : هو فى بيان أن الأنبياء عليهم الصلاة و السلام معصومون من الكفر و الكبائر ، يشتمل هذا الباب من صفحة ١٩ إلى ٢٢ ، فى هذا الباب ناقش المؤلف العقائد المختلفة للفرق الإسلامية و آراءها حول عقيدة عصمة الأنبياء ، ينتقد آراء الخوارج خاصة الأزارقة و الفضيلية ، و هو يعتقد أن المسلمين اتفقوا فى الغابر و الحاضر على أن الأنبياء معصومون من الكفر الاختيارى قبل النبوة و بعدها ، و يدحض آراء الشيعة بأدلة دامغة فى أن إظهار الكفر يجوز حتى للأنبياء فى ظروف يخافون

فيها على أنفسهم من القتل و الهلاك بل يجب على المسلم أن يخفى إيمانه وإسلامه و ينطق بالكفر و يستدلون بهذه الآية الكريمة: " لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة " نرى أن مخدوم الملك يستدل بأدلة أخرى و هى أقوى منها، يقول: إن الأنبياء جميعا قاسوا الظلم و العدوان و فتنوا و هددوا بالقتل و الهلاك، و لكنهم ما خضعوا و ما ضعفوا، بل استمروا فى دعوتهم إلى الإيمان فضلا عن أن ينطقوا بالكفر بعد الإيمان خوفا و رهبة، ثم إن الله قد فرض الجهاد و القتال على المسلمين و الأنبياء. و أن المصالح الشخصية لا دخل لها البتة فى قضايا الإيمان و الكفر.

الباب الثانى: فى بيان عصمة الأنبياء عن المعاصى التى هى دون الكفر، يشتمل هذا الباب من صفحة ٢٢ إلى ٣٨، و هو يتناول هذا الباب دراسة و بحثا، و يقدم آراء العلماء و الباحثين فى هذا الصدد، و يسند آرائه بآراء الكتاب الباحثين مثل القاضى عياض و الإمام القشيرى و غيرهما، يعتقد المؤلف أن الله يعصم الأنبياء عليهم الصلاة و السلام من المعاصى و الكبائر بعد البعثة و قبلها، و يسرد رأيه فى ضوء من أدلة القرآن و الحديث. و يوضح توضيحا منطقيا سليما يستقى من ينبوع الشريعة الإسلامية الخالصة و يتجنب المناقشة الكلامية الجوفاء - الأدلة التى يقدمها و هى:

الدليل الأول: أن الله قد فرض على الناس اتباع الأنبياء فلو أنهم ضلوا الطريق و انحرفوا عن الصراط المستقيم و ارتكبوا المعاصى لوجب على الأمة أن تتبعهم حتى فى المعاصى و الفسق، يقول الله سبحانه و تعالى: " قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم "، و يقول الله تعالى أيضا: " آمنوا بالله و رسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله و اتبعوه لعلكم تهتدون "، و يقول أيضا: " ما آتيكم الرسول فخذوه و ما نهيكم عنه فانتهوا ".

الدليل الثالث : لو أن الأنبياء ارتكبوا المعاصى و وقعوا فى المفاسد لوجب على الناس أن يأمروهم بالمعروف و ينهوهم عن المنكر ، فكأنهم بهذا الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر يؤذون الأنبياء و يجرحون مشاعرهم ، و هذا حرام ، لأن الله تعالى سبحانه يقول : « ان الذين يؤذون الله و رسوله لعنهم الله فى الدنيا و الآخرة و اعدلهم عذابا مهينا » .

الدليل الرابع : لو أن الأنبياء ارتكبوا المعاصى لوجب عليهم عذاب الله و عقابه ، و هذا ينافى شأن النبوة ، يقول الله تعالى : « إذا لاذقناك ضعف الحيوٰة و ضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا » و يقول الله تعالى أيضا : « ينساء النبى لستن كاحد من النساء .... من يأتى منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين » .

الدليل الخامس : لو أن الأنبياء ارتكبوا المعاصى و وقعوا فى الكبائر لعدوا من حزب الشياطين و عملوا حسب هواهم و يزداد سرور الشياطين لأنهم نجحوا فى الإغواء و التضليل حتى الأنبياء ، و لا شك أن فى إتباع الشياطين خسرانا مبينا ، فالله سبحانه و تعالى يعصم الأنبياء من الخسران و يأخذ بأيديهم لانهم من أحباء الله و أوليائه . فالله يخاطب إبليس قائلا : « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » و يقول على لسان إبليس : « لاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » من ذا الذى يكون أقرب إلى الله من الأنبياء لأنهم من عباده المخلصين المصطفين .

الدليل السادس : لو أن الأنبياء ارتكبوا المعاصى و تلوثوا فى الفسق و الفجور لبطلت شهادتهم ، لأن شهادة الفاسق لا تقبل إلا ببينه ، يقول الله تعالى : « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » .

الباب الثالث : القصص المنسوبة من هـــذا الجنس إلى الأنبياء .

هذا الباب من أوسع الأبواب فى الكتاب . يشتمل من صفحة ٣٨ إلى صفحة ١٤٦ يتناول مخدوم الملك القصص المنسوبة إلى الأنبياء بحثا و دراسة . و ينتقد العلماء الذين يعتمدون فى أبحاثهم العلمية و دراستهم الدينية على القصص كالبيهقى و الأصفهانى و الجبائى و الرمانى، يقول ينبغى فى دراسة مثل هذه الموضوعات الهامة أن تنقح القصص و تغربل فى غربال النقد و العقل، و هو فى هذا يأخذ بآراء قفال و أبى حامد المقرئ و يثنى على منهج دراستهما، ثم هو يقول: ينبغى لكل كاتب أو باحث أن يدرس القرآن و الحديث، و ينظر إلى القصص التى حكاها القرآن، و يفهم غايتها نحوها، ثم يعود إلى الحديث و يحقق القصص التى توجد فى مجموعة الأحاديث و يدرسها فى ضوء الأصول التى رتبها المحدثون، و يرتب النتائج فى ضوئها، ثم هو يتناول موضوع القصص المنسوبة إلى الأنبياء و أثرها فى الدراسة الإسلامية، لا شك أنه يستفيد فى هذا الموضوع بكتاب « المعتمد » للامام التوربشتى، ثم هو نفسه يشير إلى كتاب الكشف و البيان فى تفسير القرآن، بعد ذلك هو يتناول موضوع النبوة تبدو فيه دقة نظره و سعة فكره، و ينتقد كتاب « معالم التنزيل » للامام البغوى، و يستمر فى بحثه حتى يصل إلى ذكر عصمة الملائكة، و يذكر رأى القاضى عياض فى كتابه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » الذى ينفى فيه عصمة الملائكة، نرى أن مخدوم الملك هو يعتقد بعصمة الملائكة و يقول: ينبغى لكل عالم و فقيه أن يؤمن بعصمة الملائكة كما يؤمن بعصمة الأنبياء، و يستند فى هذه العقيدة على رأى الإمام فخر الدين الرازى الذى سبقه فى عقيدة عصمة الأنبياء، ينبغى أن نذكر هنا أن الإمام مخدوم الملك حينما يذكر رأى الإمام فخر الدين الرازى فى عقيدة عصمة الملائكة لا يذكر كتاب الإمام الرازى الذى يعرف باسم عصمة الأنبياء،

و إنى

و إنى أظن أن مخدوم الملك لم يعثر على هذا الكتاب لذلك لم يذكره فى كتابه، و على كل حال هو فى هذا البحث الدقيق قد تأثر برأى الإمام الرازى كأن رأيه قد وافق هواه و منهجه الذى يريد أن يكون كمثل هذه الموضوعات الدينية، فهو حين ينقل أقوال الإمام الرازى نرى فى جنبها يذكر أقوال العلماء الآخرين كالإمام البيضاوى المفسر، لا شك أن المنهج الذى اختاره فى دراسة هذا الموضوع فى كتابه كان منهجا منطقيا، و يستند على النقد العلمى السليم، و هو فى هذا المنهج كان عالما جريا و ناقدا قويا و مجتهدا يثق بنفسه، فالدارس يجد فيه متعة نفيسة و لذة علمية. و يتبين تماما أنه قد اطلع على جميع المصادر و المراجع التى تتناول هذا الموضوع، فنرى أنه كثيرا ما يذكر آراء العلماء كالشيخ أبى منصور و الأشعرى و البيضاوى و أبى عبيد و الواسطى و القشيرى و الغزالى و الجنيد البغدادى و الباقلانى و القاضى عياض، و أبى إسحاق الكلاباذى. و من الكتب التى نجد ذكرها كثيرا فى كتابه هى المواقف و التوابع و الصحاح و الكشاف و التيسير و بحر الحقائق و هدايه الهداية و الشفا و تفسير محيي السنة للامام البغوى.

كتاب عصمة الأنبياء و قيمته التأريخية و الأدبية

كتاب عصمة الأنبياء هو فى الحقيقة تأليف رجل قد لعب دورا علميا و أدبيا و سياسيا و اجتماعيا فى عصره، فالكتاب فى الحقيقة يلقى ضوءا على صورة المجتمع الهندى الذى تسربت إليه النزعات الدينية المختلفة و الاتجاهات السياسية من المجارى المختلفة، فقد كانت هذه النزعات و الاتجاهات تتصارع بعضها مع بعض، فقد جاء الكتاب فى مثل هذه الظروف، فأصبح وثيقة دينيـــة لعصره، و إهداء الكتاب إلى مرزا كامران يدل أيضا على نزعته السياسية و عقيدته الدينية و السنية التى كان يعتقدها.

فقد كان دين الدولة الإسلام، و مذهبها القانونى المذهب السنى و الحنفى، فقد كان مخدوم الملك يريد أن يقوى بهذا الكتاب المذهب السنى الحنفى، فنال كتابه قبولا و ترحيبا لدى العلماء، و اشتهر هو فى الهند و خارجها كعالم كبير و ناقد اجتماعى و مجتهد دينى، أمّا من ناحية الأدبية و الفنية فان هذا الكتاب وحيد فى موضوعه، جميل فى فنه، بديع فى أسلوبه، يناقش الموضوعات الدينية و السياسية و الاجتماعية مناقشة علمية لا تعقيد فيها و لا غموض، إذا قارناه بالكتب التى ألفت فى عصره فقد كان عصر المصنف عصر شرح للمتون و تقييد الهوامش و التعليقات على النصوص، فقد ضرب المصنف مثلا رائعا فى كتاب مستقل فى موضوعه يضرب على وتر جديد و ينم عن فكر بديع، فقد ألف مخدوم الملك هذا الكتاب المهم فى اللغة العربية فى عصر انحط فيه مستوى اللغة و الأدب فى الهند بل فى جميع البلاد الإسلامية و العربية، فقد كان فى الحقيقة عصر الصناعة اللفظية الخالصة، و أصبحت التراكيب المعقدة الغامضة هواية العلماء و الكتاب، فهو من هذه الناحية مجدد اللغة و الأدب أيضا، نقدم نموذجا من مقدمة كتابه، يجد القارئ فيه أسلوب العلماء المتقدمين الذين عرفوا فى كتاباتهم و أبحاثهم العلمية سلاسة البيان:

«إنه (عبد الله) طال ما جال فى صدرى، و لم يبلغه قدرى، من أن أجيل نظرى و أركض فكرى فى ميدان بيان "عصمة الأنبياء" و صرف ما نسب إليهم بالافتراء، مما لا يليق بحال الاصطفاء و مقام الاحتباء، و ذلك أهم لمن أنعم بامعان النظر فى تحقيق مبانى الإسلام و اتقان الضبط لقواعد علم الكلام، لما ان أسرى التقليد المحرومين من التأييد و التسديد، يحومون حول أقاصيص الأنبياء و يعربون عن زلات الأصفياء، من غير أن يفرقوا بين ما هو

قريب من الصواب و بين ما هو بعيد، و بين ما هو سديد و بين ما هو زايد عن المنهج الرشيد، يحرفون الكلم عن مواضعه، و يفطمون أطفال الذلات(؟) فى مراضعه، و لا يعلمون ما يتفوهون، و لا يبالون غرض من يهتكون، و يحسبون أنهم يحسنون، كلا أنهم عن الحق لمحجوبون، و كنت فى ذلك أقدم رجلا و أوخر أخرى، لما لم أر نفسى بذلك أحرى، لكن صدق الهمة، و أداء شكر النعمة، بل الخروج عما وجب فى الذمة، كان يحدونى بالخوض فيه و إن خاض السابقون المقربون خوضا فخيما، اطاعا(؟) فى أن أكون معهم فأفوز فوزا عظيما، فحاولت أن أوسس أساس عصمة كل نبى و رسول، و أمهد ما يوثق عليه فى ابتناء الفروع و الاصول، و أصرف ظواهر ما نسب إليهم من المسموع و المنقول، وأنفى عنهم ما وشى عليهم مما يأباه صحاح العقول، بتأويل بديع موافق لمقطوع الدليل، و محمد(؟) صحيح هو شفاء العليل و دواء الغليل، و هدى إلى سواء السبيل، و لا يبقى فيه محل القال و القيل".

ان هذا الأسلوب السلس فى العصر المغولى فى الهند لم يك نادرا فيها فحسب، بل كان نادرا و جديدا فى العالم الإسلامى بأسره، فالكتاب فى الحقيقة مساهمة كبيرة للغة العربية و آدابها، و ثروة علمية ينال بها المؤلف مكانة علمية عالية فى العالم الإسلامى، انى يشرفنى جدا أن أقوم بتحقيق الكتاب و تقديمه إلى الناس فى المستقبل القريب - إن شاء الله تعالى.

ه ه ه ه

جامعة عليگره، الهند

الدكتور عبد البارى

(۱) العلامة عبد الحى الحسنى: نزهة الخواطر: (٤ : ٢٠٥)، طبع حيدرآباد ١٩٤٥م

(۲) عبد القادر البدايونى: منتخب التواريخ (٣ : ١٤٤) الترجمة الإنجليزية.